

٥ - مولود المامري

من أديباء الطليعة في الجزائر ، جمع بين الموهبة الأدبية والنضال الفكري الواعي ، وهو واحد من الفئة الممتازة التي أسهمت في بلورة الثورة ونقلها من نطاق السخط الفردي والشكوى المبهمة والحيرة المضللة إلى ميدان الثورة الجماعية المنظمة والنضال الشعبي المركز ، كما عملت على إقامة الحدود الفاصلة بين القومية الفرنسية التي تحاول تمثل الشعب الجزائري وبين القومية الجزائرية ذات الخصائص والمقومات الروحية والمادية .

إن الكتاب الجزائريين يختلفون في طريقة إظهار معالم القومية الجزائرية والمناذاة بوجودها ، ففي الوقت الذي نجد بعضهم يسلك طريق الإيجاء والتورية والتلميح الخفي والأسلوب الفني نجد آخرين ومنهم مولود المامري يتجهون نحو الصراحة ، منزلين قضية « الشخصية الجزائرية » والواقع القومي منزلة العقيدة والموضوع الأساسي في أدبهم آثارهم . ولا أدل على ذلك من جملة يقولها دوماً أحد أبطال رواية مولود المامري كلما سئل

عن سبب تصرفاته الغريبة : « أنا جزائري ! » وقد سبق مولود المامري في عمله الأدبي إلى التعرض لقضايا كثيرة لها علاقة بحياة بلاده وكفاحها الاستقلالي ، منها قضية الاستعمار ، فهو يرى أن الاستعمار ليس نظاماً سياسياً واقتصادياً مبنياً على السطو والعدوان واللصوصية فحسب ، بل هو نظام يستمد فاعليته من نظرة رجعية تحتقر البشر ، وفلسفة لا تؤمن بالقيم الخلقية والمكتسبات الحضارية التي جاهدت الإنسانية عصوراً من أجل تشييدها والحفاظ عليها . ففي رواية نوم الرجال العادل يورد مولود المامري جملة على لسان أحد سكان القرية التي بطش بها الحاكم المستعمر الظالم ، وهذه الجملة بعيدة الدلالة على عقلية المستعمرين : « أعتقد أنك تحتقر الناس إلى حد بعيد ما دمت ترضى أن تحكمهم على هذه الشاكلة ! »

وتتصف أفكار مولود المامري بالنزعة التقدمية الثورية ، والوعي القومي الذي يقدر نضال الشعوب وتعتبره أساساً للتحرر من العبودية ، ولذا تراه يعتقد أن روح الجزائر النضالية لم تخمد على مر السنين ، بل تخللها فترات خمود ، خمود النار تحت الرماد ، فالنضال القومي ضد الاحتلال لم ينقطع منذ عهد القادر إلى معارك جيش التحرير ، وهو ينادي بأن الثقافة الفرنسية

إنما هي ستار يخفي وراءه المستعمرون غاياتهم ، وتسويغ للاستعمار نفسه ، وإذا عرفنا أن الشعوب المغلوبة كشعب الجزائر لم تنل من هذه الثقافة إلا النذر اليسير نظراً للعوائق التي أقيمت في طريق نشر العلم والمعرفة بينهم وحصرها في فئة ضئيلة ، أمكننا إدراك مقدار التضليل والتمويه الذي يغلف قضية الثقافة ويبعدها عن الأغراض النبيلة التي يجب أن تهدف إليها الثقافة الإنسانية الواسعة التي يجب أن تغدق على الشعوب دون حساب أو غاية أو غرض بعيد أو قريب سوى ترقية الإنسان وإعلاء شأن العقل والروح .

ولد مولود المامري في ٢٨ ديسمبر ١٩١٧ في قرية تاويرت ميمون في جبال البربر العليا ، وكان يعلم إلى جانب لغته البربرية بالفرنسية عندما غادر مسقط رأسه للالتحاق بمدرسة الرباط الثانوية ، ثم انتسب بعدها إلى ثانويات الجزائر وباريز ، واشترك مع الجيش الإفرنسي في معارك فرنسا وألمانيا وإيطاليا ، ثم ترك الجيش ودرس الأدب في مدرسة « بن عكنون » في الجزائر ، وهو يقيم اليوم في الرباط بعد أن طارده السلطة الاستعمارية . وقد حدد مولود المامري موقفه من ثورة الجزائر في كتاب أرسله إلى صديق سنة ١٩٥٦ جاء فيه : « تطالعنا

كل يوم قائمة جديدة من القتلى ، وموجة جديدة من الحماسة ،
 إنك تحدثني عن الأدب . . . كلاً لم أعد أكتب منذ سنة
 كاملة ، لأنني أعتقد أنه لم يعد هناك شيء جدير بالكتابة
 اللهم إلا المأساة الكبرى ودماء الأبرياء بجميع الأبرياء الذين
 يدفعون ثمن جريمة المحرم الوحيد وهو الاستعمار . . .
 والأمل العنيد ، ذلك الذي سوف ينبع من آلام الولادة ،
 وآمل أن ينبع عن قريب ذلك الشيء الحديد الذي لا محالة
 سوف ينبع من أرضنا . . . إنك تعلم أنني لا أدين الرجال بل
 النظام ذاته . . . إن الرجال أصيبوا بالعقم لأن المشاعر التي
 تلازم النظام الاستعماري لا تبعث الحماسة بل تقف كلها في
 المستوى الأسفل والأكثر سلبية والأخطر والأبشع . إن الرجال
 الذين يزدهرون في ظل الاستعمار هم المنافقون وتجار السوق
 السوداء والخنوة والنواب المعينون والبلهاء في القرى والمنحطون
 والطامعون على غير أساس والخبرون والقوادون وأصحاب القلوب
 السوداء ، ليس هناك في ظل الاستعمار قديس ولا بطل حتى
 ولا الكفاءة التي لا يقدرها الاستعمار ، فالاستعمار لا يرفع
 أحداً بل ينشر اليأس والجدب ، وهو لا يجمع بل يفرق ويعزل ،
 الاستعمار يدفن كل إنسان في عزلة ليس فيها أمل . . .

وقد ألف مولود المامري روايتين الأولى « التل المتسى »
والثانية « نوم الرجل العادل » وتعتبر الأولى من أقوى ما أنتجه
كتاب الجزائر ذوو التعبير باللغة الفرنسية ، فهي تترك أثراً
وانطباعاً شديدين في القارئ بما تحويه من صور قوية عن
قبائل البربر والوسط الذي تعيش فيه ، وتجرى حوادث الرواية
في إحدى قرى الجبلية « تاسكا » ، فقد كان يعيش في هذه
القرية قبل الحرب الأخيرة جماعة من الجزائريين عيشة عزلة
وانقطاع عن العالم الخارجي ، يسودها الملل والبطالة والتناحر
العاطفي الشديد ، حتى إذا جاءت الحرب كشفتهم لأنفسهم
وفرقهم أيدي سباً ، وتبدو من خلال الإطار الروائي العاطفي
مظاهر هذا المجتمع البربري القبيلي المعذب الذي حرم نعم
الحضارة والعيش اللائق الشريف ، وسيطرت عليه العادات
والتقاليد والغميبات ، كما تبدو في الرواية مظاهر الحرب في
أفريقيا الشمالية من سنة ١٩٤٢ إلى ١٩٤٤ وما بجرته على
الجزائر من بؤس وعوز ونقص في الرجال .

* * *

سأل أحد أبطال رواية مولود المامري صاحبه : « هل أنت
في السجن؟ فأجابه أنا في الجزائر . قال : إن كلا الأمرين سواء ! »

فإذا كانت الجزائر سجنًا كبيرًا تحده أسوار الاستعمار ،
وتكبل نزلاءه الجزائريين قيود المستعمرين وإرهابهم ، فإن
قرية « تاسكا » في جبال البربر حجرة صغيرة ضمن السجن
الكبير تبدو فيها الحقيقة الاستعمارية في شكلها السافر ووضعها
الأليم ، كما تبدو الحقيقة الإنسانية في تناحر ناسها ونضالهم
المادى وسوراتهم العاطفية في جو من الملل والكآبة والقلق النفساني
والعوز والخضوع لوطأة العادات القبلية والتقاليد والعصبيات ،
فالقرية على صغرها وبعدها عن المدن تعج بالحياة والمفاجئات
وتناحر الشخصيات تؤثر في القارئ وتحمله على الاستجابة
العاطفية والمشاركة الوجدانية مع الحوادث والأشخاص .

وفي القرية كغيرها من القرى جيلان ، الجيل قديم متمسك
بالماضى متصف بالقناعة والرضى بالمقسوم ، مؤمن بالغيبيات
والقضاء والتقدير ، وجيل جديد متعلم على الطريقة الأوربية ،
متمرد على الماضى والحاضر معاً ، يأبى على الجيل القديم
تمسكه بالقديم ، ساخط على الأوضاع الحاضرة ، ينشد حالا
مبهمة تختلف عن الحال الحاضرة ، ويتمثل الجديد في
شخصيات مكران ، ومناس ، ومدور ، ووالى ، ورافع يمثل
كل واحد منهم اتجاهاً في الحياة ويدورون جميعاً في حلقة

مفرغة من الملل والفراغ الفكرى الناشئ عن انعدام الغاية والانعزال عن العالم الخارجى ، ولعل أكثرهم تمرداً وتناقضاً مع محيطه هو المعلم مدور المتخرج من دار المعلمين فى « بوذريعة » ، فهو يمثل الأفكار الجريئة التقدمية ، والفردية المتمردة على التقاليد المحترمة والأوضاع المقدسة .

وكان من الممكن أن تجرى حياة القرية فى جو مقفل بعيد عن الصخب وأصداء المدينة لولا تلك الهزة العنيفة التى اعترتها من جراء الحرب العالمية الثانية وتجنيد شبان القرية واشتداد وطأة الحرمان على أهل القرية وقد أفاد المؤلف من تجربته الذاتية فى الحرب عندما صحب الجيش الفرنسى محارباً فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا ، فإن مآسى الحرب قد أبقّت فى ذهنه وقلبه صوراً انعكست على روايته فشغلت ناحية مؤثرة منها .

فحوادث رواية « التل المنسى » تجرى تحت تأثير

حقيقتين :

ثابتة: وهى التقاليد الاجتماعية بما فيها من حسن ورسىء ،
طارئة متحركة: وهى الحرب العالمية الثانية وانعكاسها على أفريقيا الشمالية ويتخللها حوادث ثانوية اقتضتها أجواء الرواية وحبكها الفنى .

إن قصة الحروب بالنسبة للجزائر قصة مروعة ، وهي لاشك واجدة في نفوس كتابها مكاناً مؤلماً ، لأن الحروب التي شنتها فرنسا في المستعمرات أو في الأصقاع الأوربية تحمل أعباءها البشرية أبناء الجزائر ، فما أكثر الدماء التي سفكت من فرنسا ولأجل فرنسا . وما أكثر الضحايا الجزائريين الذين سقطوا دون غاية أو هدف ، ولئن جنت فرنسا من حروبها وبخاصة الاستعمارية منها فوائد ومغانم وأسلاب فإن الجزائر خاصة وأفريقيا الشمالية عامة لم تجن سوى اليم والحزن والدماء والدموع . على أن الجزائريين كانوا يتوهمون أن الحرب الأخيرة ستحمل إليهم تباشير الخلاص من حياتهم المعذبة وأنهم سيدوقون بعد علقم الاستعمار حلاوة الحرية ، وهم على معرفتهم بمساوىء الحرب وثمرها الباهظ فإنهم كانوا يتمنونها ويتلهفون إلى حدوثها ففي كل قرية من قرى الجزائر كان « الناس لا يتحدثون إلا عن الحرب ، النساء عند العين وفي الطرقات ، والرجال في الساحة والمقاهي والأسواق ، وكان الناس لأسباب متنوعة ودوافع لامنتظية غريبة ينتظرون بشيء من الزهو قدوم الحرب على الرغم من أنه لن يصيبهم منها إلا الخراب ، وأخيراً فإن الحرب حادث أساسي ، لأن الأرواح تزهدق فيها ، وهي أيضاً حادث

هام لأنها تصيب الناس جميعاً برشاشها فتكسر بذلك رقابة العيش ، كأن كل واحد قد مل الانتظار ومعرفة اليوم ما شاهدته بالأمس ، فكانوا بذلك يزيدون عبء قبولهم الصريح أو الضمني سرعة الاتجاه الجنوني نحو الحل السخيف ، والحق أن كل شيء كان يدفعهم نحو ذلك : دعاوة الصحف والإذاعة والإشاعات ذات المصدر المدروس بدقة وأخيراً . . . البؤس ، بل هذا الجبن وهذا العوز اللذان هبطا منذ سنين على قرية « تاسكا » وبقية القرى الجبلية ، فلعلهم واجدون في الحرب دواء ناجماً حتى أصبح الجميع يريدون الحرب أو على الأقل ينتظرونها بشيء من الإبهام .

حتى إذا دنت الساعة لسوق هؤلاء الشبان إلى الجازر الكى « يسمنوا الغربان في مكان ما من فرنسا وألمانيا » ارتفعت أمامك صيحات الألم المألوفة فقد كان « الأهالي يبكون أولادهم كما لو وصلت أنباء موتهم في ساحات القتال ، وكان الليل يضحهم ويردد دون انقطاع صدى صراخ النسوة اللواتى سلبن أولادهن ، وكان الظلام يجعل هذه الصرخات أشد هولاً ، وكانت المشاعل تنبع من خلال الأبواب فتضيء هذه المرة جماعات نلمح بينها خيالات النسوة يلطمن وجوههن أو يقلبن كفوفهن ، ولم يعد

أحد يفكر بالتقاليد واللباقات وسط هذا الحزن الواسع العام الذي هبط على قرية « قاسكا » .

وكان من الطبيعي أن تعاني القرية في الحرب من صنوف الحرمان أضعاف ما تعانيه في أيام السلم ، فقد ازدادت المجاعة حتى صار « الناس يخرجون إلى الطرقات وبأيديهم البنادق يرجونك بأدب أن تقتسم معهم مؤونة الشعير التي تحملها إلى أولادك ، لأن أولادهم ليس لديهم شيء يأكلونه » ، وقيل إن طبيب المقاطعة فتح بطن شاب وجد ميتاً على قارعة الطريق فوجد حشيشاً غير مهضوم ! « واكتملت الصورة بزيادة أفواج المتسولين الذين كانوا « يتنقلون على الأبواب بأثوابهم الثرثة وعظامهم الناتئة وأصواتهم الرخوة » . وحوار الناس تجاه هذا البؤس المنتشر فقد « بلغ من كثرة الشحاذين ذوى العيون الفارغة الذين يجرون على الأبواب أرجلهم الدامية والمتشققة حتى ليشك الإنسان في مقدرة الله عز وجل على إشباعهم وإلباسهم ! » زد على ذلك غلاء الأسعار وجشع المرابين وضآلة الأجور وتفشى البطالة واختفاء الحاجيات مما عاد بالحياة إلى عهد البدائية ، ولا تسل عن الردة النفسية في نفوس القرويين فقد كانت « الحرب تثقل بوظأتها على الأشياء فتجعلها أكثر

اختصاراً وأكثر كآبة « حتى إذا انتهت الحرب وعاد من الجزائريين من كتبت له السلامة والعمر الطويل وجدوا أن هذه الحرب لم تحدث تغييراً كانوا ينتظرونه ؛ فلم يفدهم تحمسهم للحرب واكتواؤهم بناورها ؛ كما لم يفدهم تحمسهم لستالين وتسميته بأبي الشوارب ، فإن الحرب لم تقض على القلق المسلط على القرية ؛ ولم تخفف من الفقر والبؤس بل زادت في وطأتهما ، فعاد الشبان من جديد إلى الهجرة طلباً للعيش « ففرغت الأسواق مرة أخرى من صخبهم القوى العنيف ، فأصبحت نظيفة باردة ، حتى إن الفتيات اللواتي لم يعد أحد يترصدهن على العين ينقلن عدداً محدوداً من جرار الماء في حين أنهن في الماضي كن يرحن ويجنن كأنهن كما يقول والى يفرغن جزارهم في أوعية مثقوبة . . . ولما حرمت العين والدروب من ضحكات الفتيات وعبثهن أضحت كئيبة وهادئة كمحاكمات الشيوخ العقلية ! » .

وكان لابد لأهل القرية من أن يعترهم التشاؤم وأن يلتمسوا لهذا البؤس سبباً غيبياً يتناسب وعقليتهم ونظرتهم إلى الحياة ، فقد شعروا أن القرية « تعاني مرضاً غريباً لا استطاع الوصول إليه ، فهو في كل مكان ولا نجده في مكان . . . وقد جربنا عبثاً جميع الأدوية ، ثم لم يعرف أحد منا سبب هذا

الداء ، هل أغضبنا وليا من أولياء الله ؟ أم هل تجاوز الشبان الحدود الأخلاقية ، أم هل فكر الشيوخ في مجالسهم تفكيراً خاطئاً أو اتخذوا تدابير ظالمة ؟ في سنتين متواليتين جمعت الينابيع فصار علينا أن ننحدر إلى بطن الوادي لطلب الماء . وأحرق البرد زرعنا ، وقد أطفأنا في الصيف ذاته أربع حرائق في غابات « أفران » لم يفصل بين حريق وآخر سوى أيام ، ولم يعد الأولاد يتشاجرون بل يجلسون في حلقات في الساحة كالشيوخ يتكلمون عن السيارات وأسعار الغلال .

وصارت نساء القرية يلدن الأولاد كالسابق ولكن أكثر المواليد من الإناث ، وكان يموت من المواليد عدد كبير وأكثر الوفيات من الذكور . . . إن ربح النحاس قد هبت على « تاسكا » . . . ولكن الأدهى من كل ذلك هي تلك الكآبة التي ترشح من الجدران ، وهذه الحمر البطيئة التي تهبط المنحدر في « تاكورافت » ، وهذه الثيران الناعسة ، وتلك النسوة اللواتي يحملن الأثقال ويؤدين أعمالهن كسخرة مبتذلة .

وكان من الطبيعي أن يكون للتقاليد والعادات والأوهام والخرافات مكان في حياة القوم ، وأثر في تصرفاتهم وسلوكهم ، وأكثرها من رواسب عصور الانحطاط والتي نجد مثلها في

الشرق العربي الإسلامي مع بعض الفوارق انجليزية التي تميزت بها إفريقيا الشمالية كشيوع الطرق الصوفية وزيارة الأولياء لحل المشاكل اليومية المستعصية وارتداد الزوايا والتكايا ، لعرض الظلمات والشكاوى فإن الأولياء الذين هم وسطاء بين الله والناس يملكون نفعا وضرا ، ويملكون إنزال المصائب ودفعها عن الناس ولذا وجب الحرص على رضاهم والتضرع إليهم عند الشدائد ألم يقل أحد أبطال الرواية بأن البلاء الذي حل بالقرية سببه أن « سيدى مالك الولي الصالح الذى سهر منذ حوالى أربعة قرون على قرينتنا وقبيلتنا قد أهملنا ، حتى عم الذل والملل من العيش ، وفى الحق فإننا عملنا كل شىء لكى نحل اللعنة علينا ، ألم يقترح دلال الحبول عندنا يوماً على مجلس الشيوخ ألا تذبح الحراف والثيران كما هى العادة عند قدوم عيد الأضحى أو عند مقدم الربيع إذ قال بعد أن تساءل عن فائدتها : « إن هذه الضحايا تكلفنا كثيراً من الأموال » ثم إن هناك طالباً من الأزهر قد صرح بأن التضحية مخالفة للدين ، غفر الله له هذا الكفر ، فإنه صغير السن . » .

ولعل النساء وبصورة خاصة العجائز منهن أكثر الناس إيماناً بالشعوذات والسحر والتنجيم وهذا لا يعنى بأن الرجال

بمنجى عن هذا الإيمان والتصديق فإن « موكران » الشاب المثقف لم ينج من سلطان المحيط فقد أطلق امرأته التي يحبها نزولاً عند إرادة أبيه لأنها لم تلد له ولداً ، وكانت قبل الطلاق صنعت ما تصنعه كل امرأة مثلها من الاستجارة بالأولياء ودخول حلقات الذكر ، وحمل سلة القش والطواف على القرى للشحاذة وغير ذلك من الوسائل . وقد كانت « عزی » زوج مكران تعتقد أن « العقم عند النساء عقاب على ذنوبهن » وكان هذا الاعتقاد « يدخل في روع المرأة كالمثقب » . ولما وصلت عزی إلى مقام الولي ، نزعت نعلها وتقدمت نحو الضريح وقبلت الراية قائلة : « يا عبد الرحمن ! ثم مدت يديها مستعطفة مرة أخرى : يا عبد الرحمن ! لقد تركتني وحدي مجردة أمام مشيئة الله ! انجدني . . اعطني ولداً وسأطلق عليه اسمك » .

وكانت العجائز الجالسات في حلقة حول الضريح واللواتي ينتسبن إلى الطريقة يرددن وبصوت واحد :

آمين ! بشفاعتك يا عبد الرحمن .

إن أمي هي من أتباعك ، وهي تدعوك ليلاً ونهاراً وتنشد كل يوم مدحك يا عبد الرحمن النساء .

وسجدت عزى طويلاً ، وظلت برهة ساجدة ثم ارتمت
على الضريح فقبلته قائلة : انقذ بيتي من الدمار ، وثدي من
العقم وسأنحر لك ثوراً يا عبد الرحمن الرحيم !

فقال لها العجوز : اطرقى برأسك يا بنتي أمام مشيئة الله
كيلا لا يترك الله وعبد الرحمن ثديك جافاً كينابيع الصيف ،
فأطرقت عزى رأسها فوضعت العجوز يدها عليه مرددة
ثلاث مرات : يا عبد الرحمن ! بارك هذين الزوجين حتى
لا يصبح أحدهما عبثاً على الآخر .

ثم قامت العجوز تصلى ليستجيب عبد الرحمن دعاء
الصبية وكان رفيقاتها يرددن بصورة آلية عند نهاية كل دعاء .
آمين وكنت تقرأ في عيون الحاضرات الدهشة لجمال هذه
المرأة ، ولم يفهمن كيف أن عاهة ظالمة تصنع هذا المقدار من
الآلم في جسم تام الحلقة ! » .

وإذا أردت أن تحضر إحدى حلقات الذكر التي أبداع
المؤلف في تصويرها فاسمع ما يقول : « ثم نهض الجميع لكي
يفسحوا المجال في الوسط ، ثم تقدمت امرأة عجوز من اللواتي
جنن للقيام بالحضرة تقودهن واحدة واحدة إلى منتصف القاعة

فيتكدس في كتلة كبيرة حية ، حتى لا يكاد يتميز الناظر سوى قطع القماش لأن الجميع أرخين رؤوسهن .
وأخذت الموسيقى تصدح ، موسيقى وحشية . رتيبة كضربات المطارق عنيفة تارة وحلوة ناعمة كالقبة تارة أخرى . وفي كل زاوية رجال ونساء تهزم الشعريرة ، وكان ينقون كالضفادع من كل مكان ، ويحركون الأكتاف بصورة تشنجية على نغمات الكمان ، حتى إذا سمعت سحبة أخرى من قوس الكمان رمى عدة رجال برانسهم وصرخوا كالوحوش الضارية ، وقفزوا وسط القاعة يرقصون ممسكين أيديهم ، وكنت تسمع أثناء الرقص قضبضة عظامهم . فإن النساء والرجال والشبان والشيوخ الذين شد الهديان من قواهم قد أخذوا يرقصون بعنف مشكلين حلقة حول كتلة النساء العقيبات دائرة هديانية . ودامت الحضرة ساعة ، وكانت عزى تسمع سقوط كتل أجسام الدراويش التي أنهكها التعب فيحملهم إخوانهم إلى زاوية المكان بعد أن يكونوا قد غطوا بالبرانس أجسادهم المتصبية عرقاً ، وبعد ساعة لم يبق منهم سوى اثنين ، فنادى صاحب العمامة الزرقاء وأصحابه كأنه آت من الأعماق وأمرهم بإخماد الرجلين الهائجين ، ثم علا أنين الكمان كأنها دقات بلورية

متباعدة مؤذنة بنهاية الحضرة وحل الصمت العميق مكان الضجيج ولم يعد يسمع من بعيد سوى أنين الدراويش المنبعث من مختلف الزوايا .

وهناك لوحات أجميد صنعها تجمع بين روعة الفن التصويرى والوثيقة الاجتماعية مما يجعل من « التل المنسى » رواية جبال القبائل الجزائرية التي يجهل القارئ العربى عنها أشياء عن عاداتها ونمط عرشها وأحوال أهلها .